شبكة الطريق إلى الله
طريقك نحو معرفة الله
Way2allah.com

اسم المادة: تتجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ

من سلسلة: آيات تتلى

لفضيلة الشيخ: عمرو الشرقاوي

way2allahcom

إنتاج فريق التفريغ بشبكة الطريق إلى اللّه

اسـم المادة: تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ
من سلسلة: آيات تتلى
لفضيلة الشيخ: عمرو الشرقاوي
رابط المادة: https://way2allah.com/khotab-item-188891.htm

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب هدى وذكرى لأولي الألباب، وأودعه من العجائب العَجَب العُجاب، وجعله حاليًا بالأحرف السبعة وكمال الشِّرعة وفصل الخطاب، والصلاة والسلام على النبي الأواب، مبلغِ الكتاب، وعلى الآل والأصحاب صلاة تدوم إلى يوم الحساب ويكون لنا بها عند الله زلفى وحسن مئاب وبعد:

يقول الله –سبحانه وتعالى–: "إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا ۚ لَا يَسْتَوُونَ * أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ" السجدة١٥ : ٢١.

هذه الآية هي واسطة العِقْدِ في سورة السجدة، احنا قولنا إن سورة السجدة عند أكثر علماء العد عبارة عن ثلاثين آية، هذه الآية هي الآية رقم ١٥ من سورة السجدة، فهي واسطة عقد هذه السورة، هذه الآية هي آية محورية في سورة السجدة.

ربنا –سبحانه وتعالى–يقول: "إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا" إنما هذه أداة حصر، والقصر هنا للمبالغة، يعني هؤلاء بلغوا من الكمال في الإيمان مبلغًا عظيمًا، فربنا –سبحانه وتعالى– يقول: "إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا" وربنا يقول: "إِنَّمَا يُؤْمِنُ" مش إنما آمن، وإنما يؤمن، فالتعبير بالفعل المضارع يدل على التجدد الذي يُفهم منه الاستغراق، فهذه حالٌ مضطَّردة لهؤلاء، يعني ربنا –سبحانه وتعالى– يقول: "إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا"، لماذا قال ربنا –سبحانه وتعالى–: "إِنَّمَا يُؤْمِنُ" ولم يقل إنما آمن؟ لأن الله –عز وجل– يريد أن يقول إنما يؤمن هذه حالة مُضطَّردة لهؤلاء، حالة دائمة لهؤلاء؛ لذلك عبر بالفعل مضارع.

قال: "إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ" والذين هذه: تفيد العموم؛ يعني كل من حصلت له هذه الفضيلة فهو داخل في هذا الفضل.

"إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا" إذا: هذه تفيد أنهم متى ما سمعوا الآيات حصل لهم الانفعال بالذكر.

قال الله –تعالى–: "إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ" ربنا –سبحانه وتعالى– عبَّر عن التذكر بالفعل المبنى للمعلوم، لماذا؟ يعني لماذا قال: "إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا"؟ يعني لماذا لم يقل الذين إذا تذكروها؟ لكي يخبرنا الله –عز وجل– أنه –هذا التذكّر– لا يشترط أن يكون حاصلًا منهم، وإنما الغرض حصول الانتفاع بالذكر، فقد يكون التذكّر بتلاوتهم هم، وقد يكون التذكّر بسماع من يقرأ؛ ولذلك قال: "الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا".

طبعًا "إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا" اللي هي آيات القرآن المتلوة؛ ولذلك قال: "الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا" فهذه قرينة على أن المراد بالآيات هنا هو آيات القرآن المتلوة.

"الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا" يعني حصل لهم الانتفاع بمجرد التذكر، سواء كان هذا التذكر منهم أو كان هذا التذكر من غيرهم، يعني حصل من غيرهم، سمعوا القرآن من غيرهم.

"إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا"؛ "الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا" يعني أن هذا السجود يتكرر منهم؛ ولذلك قال: "إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا" ولاحظ أن الله –عز وجل– عبَّر عن السجود بالخرور، والخرور: هو السقوط بشدة، ولا يكون الخرور إلا من الأعلى، يعني لا يُقال: خر الجدار، وإنما يُقال: خر السقف، فالخرور يكون من أعلى إلى أدنى ويكون بسرعة.

فربنا –سبحانه وتعالى– يخبرنا في هذه الآية عن سرعة انفعالهم حين يتذكرون كلام ربهم –سبحانه وتعالى–، حين يُذَكَّرُون بكلام الله –سبحانه وتعالى– فإنهم ينفعلون انفعالاً كبيرًا، هذا الانفعال عبر الله عنه –عز وجل– بقوله: "خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ" يعني لم يكن سجودهم عبارة عن هيئة للبدن فحسب، وإنما خروا مسبحين حامدين لربهم –سبحانه وتعالى–، والتسبيح: هو تنزيه الله –سبحانه وتعالى– عمَّا لا يليق به، والحمد: هو الثناء عليه ووصفه بالكمال –سبحانه وتعالى–، فسجودهم كان عن معرفة ولم يكن سجودًا صوريًا؛ ولذلك قال الله –عز وجل– سجدوا مسبحين حامدين ولم يكن حالًا عارضة، وإنما نشأ عن شيء خالط قلوبهم؛ ولذلك ربنا –سبحانه وتعالى– يقول: "إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا" حصل منهم هذا الخرور "وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ" هذا هو الذي نشأ عنه هذا السجود والخضوع لله –سبحانه وتعالى–؛ أن الكِبر لم يخالط قلوبهم، ولذلك لما تكبر، ولعل في هذا إشارة إلى أن التكبر هو الذي حجب إبليس عليه لعنة الله أن يسجد لآدم، فالكِبر إذا حصل في القلب نقص من السجود، نقص من الخضوع لله –سبحانه وتعالى–.

قال الله –تعالى–: "إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ" وهذه من عزائم السجود في كتاب الله –سبحانه وتعالى–، يعني الإنسان إذا قرأ هذه الآية فإنه يسجد؛ يسجد لعظمتها ولمحوريتها أيضًا وهذه سُنة النبي –صلى الله عليه وسلم–.

يقول الله –تعالى–: "إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ" فهؤلاء خرجوا مدرسة الليل، هؤلاء الموصوفين الذين وصفهم الله –عز وجل– بهذه الصفات "إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ" هؤلاء خرجوا مدرسة الليل، تخرجوا من تلك المدرسة العظيمة التي كانت فرضًا على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه في بداية الأمر "يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا" المزمل ٤:١، ولاحظوا يا إخوانا إن دي سورة المزمل من أوائل ما نزل في كتاب الله –سبحانه وتعالى–، ومع ذلك ربنا –سبحانه وتعالى– يقول قم الليل كله إلا قليلاً أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً، "قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا" أو زد على هذا النصف "أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا" المزمل ٤:٦، قراءة القرآن في الليل غير قراءة القرآن في أي وقتٍ آخر؛ لأن الليل هو وقت اجتماع القلب، فإذا اجتمع القلب على قراءة كلام الرب –سبحانه وتعالى– حصل المقصود الأعظم: "إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ" ق:٣٧، حصل له مقام الشهود، مقام الشهود: أن يشهد كلام الله –سبحانه وتعالى–، أن ينفعل بكلام الله –عز وجل–؛ ولذلك ربنا –سبحانه وتعالى– يقول: "تَتَجَافَىٰ" والتجافي: فعلٌ يوحي ببغض، وهذه من مفردات القرآن، يعني لا يوجد لها مثيل في كلمات القرآن، والتجافي كما قلنا فعل يوحي ببغض، وقوله –تعالى– "تَتَجَافَىٰ" هذا يدل على تكرر الفعل منهم، يعني دي ليست حالًا حصلت وانتهت أو أنهم جافوا الفُرُشَ وقت دون وقت، وإنما ربنا –سبحانه وتعالى– يقول أن هذا الفعل يتكرر منهم، "تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ" تبغض هذه الجنوب التي فيها القلوب، ولذلك قال: "تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ" لأن القلب هو الذي ينفعل؛ فإذا انفعل القلب أقام تلك الجوارح عن هذه الفُرُش "تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ

الْمَضَاجِعِ"، ولذلك في حديث معاذ بن جبل قال: "كنتُ معَ النَّبيِّ –صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ– في سفَر، فأصبَحتُ يومًا قريبًا منهُ ونحنُ نَسيرُ، فقلتُ: يا رسولَ اللَّهِ أخبرني بعمَلٍ يُدخِلُني الجنَّةَ ويباعِدُني من النَّارِ، قالَ: لقد سألتَني عَن عظيمٍ، وإنَّهُ ليسيرٌ على من يسَّرَهُ اللَّهُ علَيهِ، تعبدُ اللَّهَ ولا تشرِكْ بِهِ شيئًا، وتُقيمُ الصَّلاةَ، وتُؤتي الزَّكاةَ، وتصومُ رمضانَ، وتحجُّ البيتَ، ثمَّ قالَ: ألا أدلُّكَ على أبوابِ الخيرِ: الصَّومُ جُنَّةٌ، والصَّدَقةُ تُطفي الخطيئةَ كما يُطفئُ الماءُ النَّار، وصلاةُ الرَّجلِ من جوفِ اللَّيلِ، قالَ: ثمَّ تلا: "تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" السجدة١٦:١٧"[1].

ربنا –سبحانه وتعالى–يقول: "تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ" والمضاجع: هي الفُرُش؛ يعني السرير الذي ينام عليه، فربنا –سبحانه وتعالى– يقول أنهم تتجافي جنوبهم عن المضـــاجع، لماذا؟ "يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا"، "يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا" يعني خوفًا من عقابه –ســـبحانه وتعالى–، وطمعًا في جزيل ثوابه –ســـبحانه وتعالى– فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية، ولذلك قال: "وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ" وهو ده يا إخوانا إن فكرة إن الإنسان إذا أحسن في العبادة أحسن إلى الخلق، الإحسان في عبادة الخالق يجعل الإنسان يحسن إلى خلق الله –سبحانه وتعالى–، ولذلك ربنا –سبحانه وتعالى– يقول: "يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا".

ومقدم هؤلاء وسيدهم وفخرهم في الدنيا والآخرة هو رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، ولذلك وصفه عبد الله بن رواحة –رضي الله عنه وأرضاه– بهذا فقال:

وفِينَا رَسولُ اللَّهِ يَتْلُو كِتَابَهُ ** إذَا انْشَقَّ مَعْرُوفٌ مِنَ الفَجْرِ سَاطِعِ
أَرانَا الهُدَى بَعْدَ العَمَى فَقُلُوبُنَا **** بِهِ مُوقِناتٌ أنَّ ما قالَ واقِعُ
يَبِيتُ يُجافِي جَنْبَهُ عن فِرَاشِهِ ** إذا اسْتَثْقَلَتْ بالمُشْرِكِينَ المَضاجِعُ

عبد الله بن رواحة يقول عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: "يَبِيتُ يُجافِي جَنْبَهُ عن فِرَاشِهِ ** إذا اسْتَثْقَلَتْ بالمُشْرِكِينَ المَضاجِعُ".

فكأن هذه الآية، ربنا –ســـبحانه وتعالى– في هذه الآية المباركة يُعرِّض بالمشـــركين الذين يخرون على فُرشـــهم كالبهائم لا يقومون الليل، لا يقومون لله –سبحانه وتعالى–، لا يصلون لله –سبحانه وتعالى–، ولذلك قال الله –عز وجل–: "تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا" هذا هو الداعي، هذه هي البواعث التي حرَّكتهم؛ خوفاً من اللَّه، خوف من الله –ســـبحانه وتعالى–، ورجاءً فيما عند الله –عز وجل–، ولذلك الخليل –عليه السلام– سمى أمله طمعًا أيضًا قال: "وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ" الشعراء:٨٢.

قال الله –تعالى–: "تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ" الإحسان في العبادة يثمر الإحسان إلى العباد، الإحسان في عبادة الله يثمر الإحسان إلى العباد، فدليل صحة التعبد والتدين ما حل في قلبه من المرحمة لعباد الله –سبحانه وتعالى–، ولذلك ربنا –سبحانه وتعالى– قال هنا ذلك، قال: "تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ" فانظروا إلى ما فعله هؤلاء من ترك ملذاتهم لأجل الله –سبحانه وتعالى–، تركوا لذة النوم لله، وتركوا لذة المال وتحصيل المال لله –سبحانه وتعالى–، فهذا جامع إن هما تركوا كل لذة لله –سبحانه وتعالى– ولذلك ربنا –سبحانه وتعالى– عوضهم عِوَضًا عظيمًا قال: "فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ" في قراءة الإمام حمزة –رحمه الله–، "فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِي" يعني ما أُخْفِي لهم أنا، وما يخفيه الله –عز وجل– ليس كما يخفيه أحد "فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِي"، وفي قراءتنا "فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"، وقد قال النبي –صلى الله عليه وسلم– في

[1] صحيح الترمذي

الحديث القدسي عن عظمة الرب –سبحانه وتعالى– وهو يفسر هذه الآية: "أَعْدَدْتُ لِعِبادِي الصَّالِحِينَ، ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ علَى قَلْبِ بَشَرٍ"[٢]، هذه هي المدركات؛ المدرك البصري، والمدرك السمعي، والمدرك الخيالي، يعني مهما جال الخيال لا يستطيع أن يصل إلى هؤلاء.

سيدنا موسى –عليه الصلاة والسلام– لما ربنا –سبحانه وتعالى– ذكر له أدنى أهل الجنة منزلة –حديث معروف– رجل يخرج من الجنة تلفحه النار "فَتُرْفَعُ له شَجَرَةٌ، فيَقولُ: أيْ رَبِّ، أدْنِنِي مِن هذِهِ الشَّجَرَةِ فَلأَسْتَظِلَّ بظِلِّها، وأَشْرَبَ مِن مائِها" فربه –سبحانه وتعالى– يدنيه من هذه الشجرة، ثم ترفع له شجرة أخرى فيقول يارب أدنني من هذه الشجرة، حتى يقول الله –عز وجل–له: " ما يَصْرِينِي مِنْكَ يا ابْنَ آدَمَ ؟"، ما الذي يقطع هذا القول؟ يقول: "يارب لا أكون أشقى خلقك أدخلني الجنة" فربنا –سبحانه وتعالى– يقول له ادخل الجنة، فيدخل الجنة "فيُخَيَّلُ إلَيْهِ أنَّها مَلْأَى" "يَقولُ: يا رَبِّ وجَدْتُها مَلْأَى" مفيهاش مكان ليا، آخر واحد، آخر واحد هيدخل الجنة يقول يا رب وجدتها ملأى، مليش مكان، ربنا –سبحانه وتعالى– يقول: "أتَرْضَى أنْ يَكونَ لكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِن مُلُوكِ الدُّنْيا؟" فيقول هذا العبد الضعيف المسكين يقول للرب –سبحانه وتعالى–: "أتهزأ بي وأنت رب العالمين؟ فيقول الله –عز وجل–: "فإن لكَ ذلكَ، ومِثْلُهُ ومِثْلُهُ ومِثْلُهُ وعَشَرَةُ أمْثالِهِ، ولَكَ ما اشْتَهَتْ نَفْسُكَ، وقرَّت عَيْنُكَ، وأنت فيها خالد" حينئذ قال موسى يا رب هذا أدنى أهل الجنة منزلة، فما أعلى أهل الجنة منزلة؟ قالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أرَدْتُ غَرَسْتُ كَرامَتَهُمْ بيَدِي، وخَتَمْتُ عليها، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، ولَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، ولَمْ يَخْطُرْ علَى قَلْبِ بَشَرٍ".

هذا شيء لا يدخل تحت المدركات، لا المدرك البصري ولا المدرك السمعي يعني أنت ما سمعت به أصلًا ولم تره، ولا حتى المدرك الخيالي؛ مهما جال قلبك في خيالات النعيم فهذا شيء أعظم من ذلك، نسأل الله أن يجعلنا من أهل النعيم المقيم.

قال الله –تعالى–: "فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ" في قراءة الإمام حمزة ما أُخْفِي أنا لهم "مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" وقرة العين: يعني ما يحصل به الرضا على وجه التمام، فتستقر العين فيه.

قال الله –تعالى–: "فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" هم آثروا كل لذة لله –سبحانه وتعالى–، تركوا كل لذة لله –سبحانه وتعالى–، تركوا لذة النوم ولذة المال تركوا كل شيء لله –سبحانه وتعالى–، خضعوا خضوعًا تامًا، واحنا قولنا إن السجود ليس هيئة تركيبية للإنسان وإنما هي حال للساجد، أن يكون خاضعًا لله –سبحانه وتعالى–، فلذلك قال الله –عز وجل–: "جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ".

ثم قال –سبحانه وبحمده–: "أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ"، "أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا" مؤمنًا كهؤلاء الذين ذكر الله –عز وجل–صفات الكمال فيهم، "كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ" لا ينبغي أن يستوي أهل الإيمان وأهل الفسق، لا ينبغي أن يُسوِّي الإنسان بين أهل الفسق وأهل الطاعة، لا ينبغي أن يُسوِّي الإنسان بين أهل الظلم وأهل الحق، لا ينبغي أن يُسوِّي الإنسان بين المؤمن والكافر، يقولك يا عم دا بيعمل وبيعمل وبيعمل، السيدة عائشة –رضي الله عنها وأرضاها– ذكرت للنبي –صلى الله عليه وسلم– عبد الله بن جُدعان وكان يفعل في الجاهلية وكذا وكذا، فالسيدة عائشة –رضي الله عنها وأرضاها– قالت يا رسول اللَّه: فَهلْ ذاكَ نافِعُهُ؟ قالَ: لا يَنْفَعُهُ، إنَّه لَمْ يَقُلْ يَوْمًا :رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَومَ الدِّينِ"[٣]، فلا يستوي مؤمن وكافر أبدًا.

لذلك ربنا –سبحانه وتعالى–يقول: "أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ * أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" يعني المكان الذي يؤوى إليه، يَرجِعُ إليه الإنسان، نُزُل؛ والنُزُل: هو ما يعد للضيف، النُزُل: هو ما يعد للضيف.

[٢] صحيح البخاري
[٣] صحيح مسلم

قال الله –تعالى–: "أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ" يعني ربنا –سبحانه وتعالى– ذكر هذه الثنائية، ثنائية الذين آمنوا وثنائية الذين فسقوا، قال الله –عز وجل– عن الذين آمنوا: "أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"، وأما الذين فسقوا فمأواهم النار التي كانوا يكذبون بها "ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ".

"وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ".

والعذاب الأدنى؛ هو العذاب في الدنيا كما قال بعض أهل التفسير، وهذا تهديد للمشركين أن يصيبهم الله –عز وجل– بعذاب في الدنيا كما حصل لهم يوم بدر من هزيمة بدر، فلذلك ربنا –سبحانه وتعالى– يقول لهم: "وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ" والعذاب الأدنى إخبار أيضًا أن لهم عذاب آخر يعني فالدنيا، لا يبلغ مبلغ عذاب النار الموعودين به فالآخرة، فالعذاب الأدنى؛ هو عذاب الدنيا، وهذا فيه تهديد لهم؛ لأنهم يسمعون هذا الكلام أو يُبَلَّغ إليهم هذا الكلام.

ثم قال الله –تعالى–: "وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ"، شوف رحمة ربنا –سبحانه وتعالى–، ولذلك احنا ذكرنا في أول السورة قول الله –عز وجل–: "ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ" السجدة:٦، ربنا –سبحانه وتعالى– يصيبهم بالعذاب لكي يرجعوا إليه، لكي يتوبوا إليه، لكي يؤوبوا إليه –سبحانه وبحمده–، قال الله –تعالى–: "وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ".

نسأل الله –سبحانه وتعالى– أن يردنا إليه ردًا جميلًا، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله، والحمد لله رب العالمين.